

«ما يشبه الورد» حين تُصبح الوردة كائنًا «دراميًا» يرقص على حافة التلاشي

«النّضوج هو كلُّ شيء»
والوردةُ كلُّ الأشياء

خلال جائحة «كورونا» (2020) أنتج الفنان «محمد صالح خليل» عملاً فنيًا بعنوان: «لن تصل الورد لهذا اليوم»، أو -كما يحب أن يطلق عليه- «ناقل الورد»، واللافت في هذا العمل -رغم بساطته وشفافيته- أنه يطرح فكرة شديدة التعقيد حول «التأخر» وما ينتج عنه من نهايات. فالجمع بين «الورود وناقلها» على هذا النحو من التعطيل لحياتهما، والعمل على تعليقهما هكذا في أكثر اللحظات دراميتيكية، يثير رغبة جامحة لإعادة النظر في الأشياء ومآلاتها، على ذلك فإن السؤال الذي يثور في تناولنا لمعرض الفنان «محمد صالح خليل» الموسوم بعنوان «ما يشبه الورد»، هو: ما الذي تغيّر - بعد ست سنوات- لتظهر الورد مجدّدًا في أعمال الفنان «محمد صالح خليل»؟



مُحَمَّد صَالِح خَلِيل (2020) «لن تصل الورد لهذا اليوم» (أكريليك)
الصورة منشورة بترخيص من الفنان

1

في «ما يشبه الورد»، يتبني الفنان «محمد صالح خليل» إيقاعًا بصريًا متذبذبًا، يتسم بالتفاوت؛ فيبدو متراخيًا في ظاهره، ومشدودًا في داخله. تلك السيولة البادية على السطح، تُثير انطباعات متناقضة حول ما يتضمّنه المعرض من دلالات، وخاصة في ظل تكرار ثيمة «الوردة» في الكثير من الأعمال الأدبية والفنية حول العالم، ما يفتح الباب أمام تساؤلات كثيرة حول جدوى المعرض، وتوقيتته، وموضوعه؟ وهو زعم مشروع، وخاصة أنها -الوردة- تتمتع بحضور كثيف في «الميثولوجيا» العالمية بما تشكّله من سؤال إنسانيٍّ مُتوارث، إذ تلقّفتها المخيّلة كسرديات متعددة، تجلت في الأساطير على مرّ العصور، لتبتدي دمة شفافة على خد «أفروديت» ربة الجمال والحب، تهبط لتختلط بالتراب ثم تستحيل وردة بيضاء، ثم تتلون تباغًا، أو كما فعلت الآلهة عندما خفت من عقوبة «أفروديت» لنرسيس بإعادته إلى الحياة ولكن على هيئة وردة هزيلة وحزينة، وغير ذلك الكثير من السرديات والقصص التي حقّلت الوردة الكثير من الدلالات والرموز. إلا إن السؤال المحوري هنا: ما الجديد في ورود محمد صالح خليل المحتشدة في معرضه؟ وعلى أي نحو يريد تقديم سرديته؟

قد يكون من السذاجة طرح مثل هذه الأسئلة، لا سيّما أنه لا يتعيّن على الفنان تفسير أعماله الفنية، باعتبارها قولٌ مستقلٌّ بذاته يستنطق الناظرين إليه، إلا أن طبيعة المعرض تتيح مساحة لإثارة الكثير من المعاني، وهذا يرتبط «بالخداع الذهني» الذي مارسه الفنان محمد صالح خليل على المتلقي باختياره «ما يشبه الورد!» عنوانًا للمعرض، ليتبتدي بهذه الهيئة من المراوغة أكثر قدرة على إظهار «إدراكه تقني» بما يحقق هذا الشكل من التكامل اللغوي البليغ مع شكل ومضامين المعرض البصرية، فهو بذلك يستحضر «ما يشبه الورد» مبتعدًا عن المباشرة، وإن ما يجري تقديمه هو حالة الوردة، أو شكلها ورثما أثرها، فما يشبه الشيء ليس هو، هذا التجريد اللفظي باختيار العنوان نقل المعرض إلى مكان آخر، وحظّم أي سرديّة يمكن لها أن تعبر عن حقيقة ما يريده الفنان. وفي هذا السياق يمكننا التماهي مع موقف أمبرتو إيكو حول أهمية العنوان باعتباره «المفتاح المسبق لممارسة التأويل».

2

الوردة كائن متأخر

ثمة نضوج آخذ بالتبلور فيما يتعلق بتوقيت المعرض - الخريف - وما يرتبط به من نهايات، كتساقط أوراق الشجر استعدادًا لحياة جديدة، أو موت أخير، بما يُشير إلى «أسلوب متأخر»¹ يغلف روح المعرض، المهجوس بصراعاته الخفيّة. «التأخر» - كما يصفه إدوارد سعيد - هو بلوغ النهاية، لكن بوعي عميق للأزمة وتداخلاتها، لتبدو النهاية أشبه بوصول ثقيل يتميّز بالنضج الذي يفيض بالذاكرة. على ذلك فإن معرض «ما يشبه الورد» يتبتدي لي كسلسلة متدرجة من حيوات متفككة قريبة من نهاياتها، تطل بعناصرها الغامضة من مزهرات قلقة، وإنها لا تقترح بديلًا لحيواتها القاسية سوى بمزيد من التشبّث بما يُشبه الحياة. إذ كان من الممكن تلمس كيف لتلك الأشياء أن تتعذب وهي تبدأ مراحل وجودها في مرسوم الفنان «محمد صالح خليل»، لتظهر هكذا - تشبه الورد - ولكنها مُختنقة، مكتظة بصراعاتها الخفيّة (صراعات الفنان)، وهذا بحد ذاته يضعنا أمام معضلة السؤال المتكرر - تقريبًا - في جميع اللوحات المعروضة أمام الزائرين؟ كيف لنا أن نَعُزّزَ إلى هذه المساحات المتباينة رغم اختناقها؟ هل ستتحرك الورد بعشوائية وتباطؤ، ثم تستسلم، أم أنها ستتمسك بالنور وشهقات الهواء، وإن كانت متعذرة؟

إن تأمل الورود باعتبارها حالة وجودية يضعنا أمام حالة من التوتّر، فقصر حياتها يحوّلها إلى سرديّة عن الهشاشة وحتمية الزوال (التفتح من أجل الدّبول)، ومن خلال دورة حياة كهذه، بهذا التّكثيف، تظهر المتناقضات بوضوح لنسقطها على دواخلنا، مثل الآمال والخيبات، الجمال المتوهّج والذبول الشاحب، الحياة والموت، الربيع والخريف وخذلان الوقت، ذلك يشكّل مدخلاً للرؤية، وإن كانت مضطربة، مراوغة، تتمظهر بأكثر من طريقة، لكنها دون شك تستمد حضورها من قدرة الفنان نفسه على صناعة حدث التعبير لاحتواء الشاعر وبتّ طاقة التفكير، ورؤية الأجزاء وهي تتباعد عن بعضها، كما تفعل البتلات وهي ماضية في الانفكاك عن «تخت الورد» أثناء الهبوط كمشهد ممتلئ بالهزيمة، ذلك الشعور يعمّق من أسئلتنا.. فهل يجب أن تتفكك الأشياء كي تتضح الرؤية؟



مُحمد صالح خليل. معرض "ما يشبه الورد" (2026)
مصدر الصورة: جاليري باب الدار.

ولعلّ هذه الأشياء (التي تشبه الورد) ترتضي لنفسها أن تمثّل الواقع كما يفهمه الفنان «مُحمد صالح خليل» في محاولاته للتعبير عن مأزق الإنسانية في التعاطي مع التحديات الراهنة، وهنا يجري تحميل الورود ما يفوق قدرتها على التحمل لو كانت حقيقية، فمن يستطيع تحمّل الموت المتماذي في غزة، ومن يستطيع وقف هذا القلق اليومي الذي تعيشه البشرية أمام الصراعات المحتدمة لبسط النفوذ، والتوسع، والسيطرة، ونهب الموارد، ولا أحد يأبه لوردة معزولة تفتتح لتذلل رغم ما تبديه من تعاطف مع هذا الكون المثلث بالشّرور.

أبيلا² ظل يقول «لا وجود لأية وردة»، تعبيراً عن حالة الزوال الحتمي للموجودات، ولكنه أيضاً يصف الخلود المتمثّل بالشّكل، أو الأثر، لينسجم مع فكرة التحايل التي يسعى إليها معرض «ما يشبه الورد!» حول الزوال، ومرور الزّمن وتلاشي الذكريات، وما ينتج عن ذلك من مقاومة للأوهام والزيف، فالأشياء التي يقترحها الفنان هنا، ما هي إلا أشكال، تسعى لتسليط الضوء على حالة الورد ومقاومتها للعتمة، رغم افتقارها للرائحة واللمس الناعم الرقيق.

وبذلك فإن ورود الفنان «محمد صالح خليل» ترتكب الاستسلام في النهاية، وتختار أسلوبها المتأخر في اختيار الحالة الأنسب لتقديم ذاتها، ليظهر بعضها على هيئة راقصة الفلامينكو المحملة بحركاتها الغاضبة والمزدهية بأزيائها المستوحاة من الورد حيث تنتهي الفساتين بما يشبه البتلات، أو بملابس دراويش المولوية في رقصة السماع، وبعضها الآخر يأخذ شكل وردة الحلاج «الحمراء» التي توقفت أمام عينيه طويلاً قبل أن يرميها عليه أحدهم، فكانت أشد إيلاماً من حجارة الناس، وربما تعبر في كثير من أشكالها عن التلاشي واللايقين، مثل ورود الجنازات الطويلة. الكثير من الأعمال الفنية والأدبية تناولت الورد كموضوع مركزي، وقد ظهرت بأشكال متعددة تلامس جوانب الوجود والتلاشي معاً، وهذا ملفت حقيقة، فالوردة وإن بدت صامتة، جميلة، وهادئة، إلا أنها تحمل في دواخلها حياة مظلمة وقاسية، وهي في حركة داخلية نشطة خلال صراعها من أجل البقاء.



محمد صالح خليل. معرض "ما يشبه الورد" (6202)
مصدر الصورة: جاليري باب الدار.

هذا الشكل من التأخر يبعث على إحساس بالاسترخاء ورغم الأحداث المفزعة التي تحيط به. لنفكر إذن - ما هو مبعث التوتر في هذا المعرض؟ هل هو عجزه عن تقديم رؤية واضحة حول المعنى الحقيقي لحضور هذه الأشياء، وخاصة أنها تأتي في خضم ما يعيشه الفلسطينيون من تطهير عرقي في الضفة الغربية وإبادة جماعية في غزة. على أنه ما من شيء يوقف تدفق هذه الأشياء - التي تشبه الورد - وكأنها تحتفي بالبقاء بمزيد من الشك حول وجودها، وكلما أمعنا النظر تبدت لنا أهمية ما يتضمنه المعرض من حركة في اتجاهين متعاكسين: الأول، البحث عن الماضي الذي كان (قبل التوبة)، والثاني، اقتفاء المستقبل المأمول وما يتعلّق به من هواجس، إلا أن الاتجاهين رغم تنافرهما تنجح هذه الأشياء التي تشبه الورد في الجمع بينهما في الحاضر على هذه الهيئة من الاختناق.

هذا الإصرار على اعتناق الدراما البصرية المكثفة بما تتضمنه من «موتيفات» وخطوط منحنية، إنما يخلق إحساساً بعدم الاستقرار، ففكرة مشابهة الواقع الذي تروّج لها لوحات المعرض، تجعل قراءة العمل الفني مجهداً لما تحتويه من دلالات مضمرة، مُضَيِّعة، تسعى لفرض نفسها بشيء من الإلحاح لتقديم نفسها ضمن تعابير تشكيلية متداخلة، فهي وهمية من ناحية، وحقيقة من ناحية أخرى في تفسيرها للواقع.

ومع ذلك نحتاج النظر إلى «ما يشبه الورد» بما هو معرض يهدف إلى إثارة مشاعر جوانية بالغة التعقيد، لذا سأحاول تلمس كيف أن «ما يشبه الورد» في حدوده الجوانية عمل يختلف عما

يُوحى به خارجه، وهو بذلك يطرح عدة مشكلات تمس عالمنا المعاصر، وبما يوحى بخلق مشهد محتشد بالسيولة الطافية على السطح رغم ما تضمه من تعقيدات داخلية، فهو يطرح الأسئلة الوجودية بتعابير ذاتية، تتسم بالهلامية، على أنى لست أريد في هذه التأملات أن أشذ عن التركيز على أن ما نشاهده في تلك الأشياء ليس إلا أثرًا يسيل على السطح ليعبّر عن نداءاته وجدانية في محاولة لتفسير انهيئاته الداخلية وتفكيره المفرط بالأحداث وذلك لخلق نوع من التواصل النفسي مع الذات ومع الآخر، لقد أبانت لوحات الفنان «محمد صالح خليل» أنها مختنقة، تصارع من أجل البقاء، والمؤكد أن العلامة الفارقة لأسلوب «محمد صالح خليل» في الرسم هي أن رسمه يبتث إحساسًا بالاتساق العاطفي والدلالة الدّهنية، وإنه خدمة لذلك الغرض يوظف التقنية بثبات وتمكن ليفيض بكل هذه التعابير.



محمد صالح خليل. معرض "ما يشبه الورد" (6202)
مصدر الصورة: جاليري باب الدار.

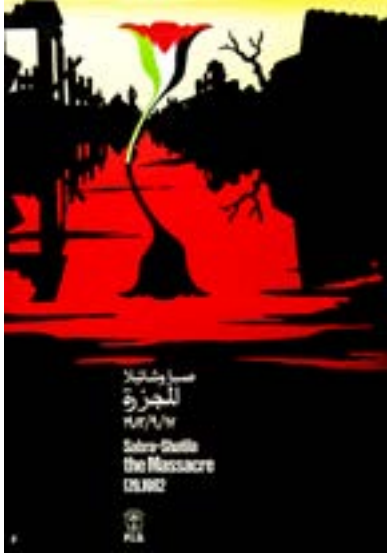
2

سيقانٌ سوداءٌ مبتورة، ومزهرياتٌ قلقة

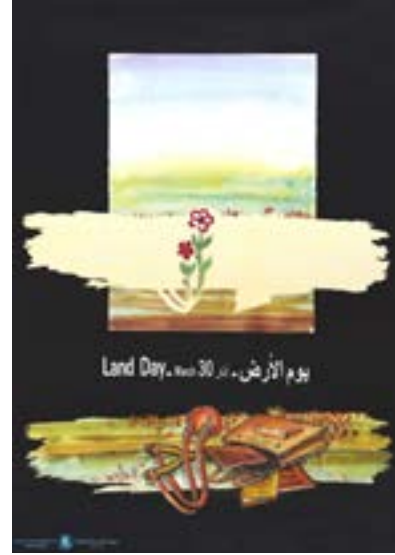
لم يكتفِ الفنان «محمد صالح خليل» بتعليق وروده في منطقة برزخية، بل اختار لها مزهريات قلقة، تتبدى ملامح الحزن على قسماتها، بينما يسيل السواد العميق على الأغصان والأعواد المنحنية، ثم ماذا يحدث بعد ذلك؟ هل ستجد طريقها إلى مخاوفنا المتجددة حول وجودنا المشكوك فيه. تلك المزهريات تضمن في أحضانها ورودًا مبتورة (مقطوفة أو مقصوصة)، «ورغم ارتباط الورد بالقطف، فإن رُعاة الورد يُرجحون أن عمر الورد «المقصوفة» قد يجعل عمرها في الزهرة أطول من الورد «المقطوفة» (منى أبو النصر، 2025، ص 110-111)

وسواء كانت الورد المحتشدة في المزهريات مقصوصة، أو مقطوفة، فإنها تعيش زمن البتر المُفضي إلى الموت البطيء والانفصال عن الجذور، ويمكننا تخيل رائحة العطن وهي تنتشر في المحيط بينما يأخذ الماء الآسن شكله الداكن، والبائس. ذلك يجعلني أتساءل عن سبب اختيار المزهريات مكانًا حصريًا لكل الورد في اللوحات المعروضة، وكأن الفنان «محمد صالح خليل» يتقصد سحب روحها من مكانها، لتترك فراغًا في نفسه. على أن وجود هذه الورد في المزهريات يحيلني إلى تلك الورد

التي عبرت عنها بوسترات الثورة الفلسطينية في سبعينات وثمانينات القرن الماضي، حيث كانت ملتصقة بالأرض، مُتحدية واضحة و متمفردة، فحياة الورد في الطبيعة كما يصفها ميترلينك في كتابه «ذكاء الأزهار»، محاطة بالغموض، فخلال ترقُّباتها وآمالها، تنتظر قبلات خفية تأتيها من حبيب مجهول، محمولة على الريح، أو بين جناحي نحلة، أو فراشة، بينما تُصاب بلعنة الثبات الثقيل في أماكن لم تختبرها، وفي ظروف تتطلب منها صراعات متعاقبة مع العتمة تحت التراب خلال بحثها عن الحياة - عن الماء - لمواصلة سعيها نحو النور، ذلك الشيء المُضاء!



صبرا وشاتيلا المجزرة: ملصق صادر عن م.ت.ف (1982)
المصدر: أرشيف المتحف الفلسطيني الرقمي



يوم الأرض: ملصق صادر عن م.ت.ف (1989)
المصدر: أرشيف المتحف الفلسطيني الرقمي

هي بذلك تدرك جيداً على ماذا يجب أن تثور دون أن تشتت جهودها، فهي تريد تحقيق هدف واحد: «الصعود هرباً من حتمية القاع، والإفلات من القانون الثقيل الكئيب وتجاوزه، والتحرر، وتحطيم ذلك النطاق الضيق واختراع اجنحة أو استحضارها والفرار إلى أبعد مدى ممكن، وقهر الحيز الذي يحبسها فيه القدر والاقتراب من مملكة أخرى، واختراق عالم نابض بالحركة والفاعلية.» (Maeterlinck, 1907, p12)

فلماذا اختيار المزهريّة مكاناً للورود وبتريها من مكانها الطبيعي، إن كانت ستعطي معنا آخر؟ بصرف النظر عن الرؤى المختلفة حيال ذلك، إلا أن الزمن قد تغيّر، فما قبل التسوية السياسية لا يشبه ما بعدها، وما قبل الإبادة لا يشبه ما بعدها، والورود في معرض «ما يشبه الورد» وما أصابها من بتر محمل بالرمزيات المزدوجة العالقة ما بين أحلام الصعود وخيبات الذبول والموت، إنها بذلك تعبّر جيّداً عن الحالة النفسية والوجدانية للكثيرين منا، ولعلّها تزداد توهّجاً كلما كان الفقد درامياً كالأزهار المتناثرة تحت أقدام الخريف.

إن ما يشبه الورد أثار في داخلي سؤالاً حول الطريقة التي اتبعها الفنان محمد صالح خليل في رسم هذه الأشياء المختنقة، العالقة بين موت وحياة، وكيف له أن ينجح في ترك هذا الأثر، على أن إدغار آلان بو قدم تصوّراً في هذا الشأن عندما قال: «إن الأثر الذي يُحدثه العمل الأدبي شيء، والمعرفة بسيرورة هذا العمل شيء آخر»، فحين يكون العمل الأدبي أو الفني مُشكّلاً بحرص لجذب المتلقين قصد إحداث أثر ما في نفوسهم، فإن الكاتب أو الفنان قد ينجح في ذلك، لكن العضلة ستكون فيما لو عرفنا كيف تم صنع ذلك العمل الفني، فإننا - ربما - لن نشعر بنفس الطريقة فيما لو اكتفينا بحدوده الظاهر. (أمبرتو إيكو، 2010)



ملاحظة:

في تلك الليلة -بعد الانتهاء من زيارة معرض «ما يشبه الورد» في جاليري «باب الدير» في رام الله القديمة- وعند وصولي إلى البيت، نظرت حولي وتساءلت: أين اختفت الزهريات؟ وهي التي كانت في أكثر من زاوية تضم وردة أو وردتين!

المراجع:

أبو النصر، منى. (2025). الحالة السردية للوردة المسحورة. دار الشروق. القاهرة. مصر.
Maeterlinck, M. (1907). The intelligence of flowers (A. Teixeira de Mattos, Trans.). Dodd, Mead & Company. (Original work published 1907)